

بسم الله الرحمن الرحيم ربّ أنعمتَ فزدْ

التسامح الدينيّ في الحضارة الإسلاميّة " الأديب أبو إسحاق الصابي (ت384هـ) أنموذجاً "

ورقة بحثيّة مقدّمة في المؤتمر العلميّ الدوليّ الثاني :
" حوار الحضارات والثقافات "

" The Dialogue of Civilizations and Cultures "

المنعقد في كليّة الآداب / جامعة الطفيلة التقيّة / 26-28 نيسان 2016م

إعداد د. علاء الدين زكي

قسم اللغة العربيّة وآدابها

جامعة الزيتونة الأردنيّة

توطئة :

إنّ موقف الإسلام من النَّاس ، لا يختلف ابتداءً ، ولكنّ مواقف النَّاس منه هي التي تختلف ، ومن ثمّ تحدّد له منهاج معاملتهم ، والتعايش معهم ، ذلك المنهاج القائم على تسامح الإسلام مع الآخر ، أيّا كان معتقده أو دينه ، وهذا التسامح فضيلة حضاريّة ، وهو من أعظم ما تميّزت به الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، التي اهتمّت بـ " حقوق الإنسان ، والعناية بإنسانيّته ، بغض النّظر عن عقيدته ، أو لونه ، أو جنسه ، أو مركزه الاجتماعيّ " (1) .

وعند النظر في الكتاب العزيز والسنة المطهّرة ، نجد أدلّة التسامح الدينيّ الإسلاميّ حاضرة وافرة ، دقيقة عميقة ، وسوف أعرض لأية واحدة وحديث شريف واحد ، نموذجين واضحين ناصعين لحقوق غير المسلمين في ظلّ الحضارة الإسلاميّة :

قال تعالى : " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (2) ، ورد أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ بعض نساء الأنصار في المدينة ، كنّ قبل الإسلام يندرن عند قلة الولد أن يهودن أولادهنّ ، فلمّا جاء الإسلام وأجليت بنو النضير من اليهود ، كان فيهم بعض أبناء الأنصار ، فأراد آبائهم أن يردّوهم إليهم ، وأن يحولوهم عن دين اليهود ، فنزلت الآية في تحريم إكراه غير المسلم على اعتناق الإسلام ، وترك حرّيّة الاختيار له ، بمحض إرادته ، إن شاء أسلم ، وإن شاء بقي على دينه وملته ! (3) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة " (4) ؛ وبهذا يحرم الاعتداء على الذمّيّ ، سواء أكان الاعتداء معنويّا أم مادّيّا ، مثلما يحرم ذلك بين المسلمين أنفسهم ، سواء بسواء ، " وقد بلغ الفقهاء في حماية غير المسلم في عرضه ، والعرض كما هو معلوم موضع الذمّ والمدح من الإنسان ، أن قالوا : إنّ الذمّيّ يجب له ما يجب للمسلم ، فإذا حرمت غيبة المسلم ، حرمت غيبة الذمّيّ ، بل ظلم الذمّيّ أشدّ ؛ لأنّ ظلم الضعيف أشدّ حرمة من ظلم غيره " (1) .

(1) رحائم ، د. سعاد ، الحضارة الإسلاميّة : جذور وامتدادات ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 121 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة ، قطر ، 1428هـ ، ص 135-136 .

(2) سورة البقرة ، الآية 256 .

(3) انظر : ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشيّ (ت 774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، ط1 ، تقديم عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار الفيحاء ، دمشق ، 1994م ، مج 1 ، ص 416-417 .

(4) حديث حسن صحيح . انظر : أبو داود ، سليمان الأزديّ السجستانيّ (ت 275هـ) ، سنن أبي داود ، ط1 ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمّد كامل قره بللي ، دار الرسالة العلميّة ، بيروت ، 2009م ، ج 4 ، ص 658 . حججه : خصيمه .

(1) صفّي الدين ، د. بلال ، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب : دراسة تطبيقيّة ، ضمن أوراق مؤتمر التسامح الدينيّ في الشريعة الإسلاميّة ، كليّة الشريعة ، جامعة دمشق ، 2009م ، ص 18 .

كما يحرم الاعتداء على أموال أهل الذمة ، لا فرق في تحريم الاعتداء على هذه الأموال بين أن تكون متقومة عند المسلمين ، أو غير متقومة كالخمر والخنزير ، وهذه الحالة هي أعلى درجات التسامح ، بأن " لا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم أو مذهبهم ، وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك ، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة ، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح " (2) .

وهذا الرقي في التسامح تفوق حضاري للإسلام ؛ " لأن غير المسلم يمكنه أن يستعيض عن لحم الخنزير بغيره من اللحوم ، ويمكنه ترك شرب الخمر ، رعاية لرغبة الأكثرية من المسلمين ، ولكن الإسلام علم أتباعه أن يتركوا الناس وما يدينون ، وهذا يسبق المبادئ الديمقراطية إلى حد كبير ، لأنه لا يحكم الأغلبية على الأقلية ! بل يندب المسلمين إلى التسامح مع غير المسلمين ، الراغبين بأن يكونوا مواطنين في الدولة الإسلامية ، وذلك بأن يعطوهم ما أمكنهم في عقد الذمة ، ليفهموا أن في دين الإسلام سماحة ، وليعلموا الإسلام عن قرب ؛ مما يدعوهم لقبوله " (3) .

ولعل التاريخ الإسلامي ، منذ قيام الدولة الإسلامية الأولى ، بدستورها المائل في وثيقة المدينة ، خير شاهد على التسامح الديني في الحضارة الإسلامية (4) ، الأمر الذي أقر به حتى أعداء المسلمين ، وعدوه ميزة وفضيلة ، وعملوا على تقليده في السلم والحرب ، وبذا كان المسلمون قدوة للآخرين ، وكانت حضارتهم قبلة الحضارات والثقافات (5) .

وفي الحضارة العباسية - في القرن الرابع الهجري خاصة ، الحقبة التي عاش فيها أبو إسحاق الصابي - تمتع أهل الذمة بكثير من ضروب التسامح الديني ؛ إذ كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص ، فأقلموا شعائرهم الدينية في أمن وسلام ، وشاركوا المسلمين في وظائف الدولة ، وفي ممارسة المهن الحرة كافة (1) .

وهكذا ، كان التسامح الديني عنوانا للحضارة الإسلامية ، تلك الحضارة الربانية ، الراقية في تعاملها مع غير المسلم ، إذ تنظر له نظرة إنسانية ؛ " فهو من خلق الله الواحد الأحد ، وحرّي

(2) انظر : القرضاوي ، د. يوسف ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983م ، ص43 .

(3) صفّي الدين ، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب : دراسة تطبيقية ، ص18 .

(4) انظر : الشعبي ، د. أحمد قائد ، وثيقة المدينة : المضمون والدلالة ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 110 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية ، قطر ، 1426هـ ، ص171-192 .

(5) انظر : هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، وزارة الثقافة ، عمان ، 2013م ، ص412-413 . وانظر أيضا : أبو حسان ، د. محمد ، دور الحضارة العربية الإسلامية في تكوين الحضارة الغربية : دراسة مقارنة مع الحضارتين اليونانية والرومانية ، ط1 ، وزارة الثقافة ، عمان ، 2009م ، ص374-376 .

(1) انظر : منتر ، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2008م ، ج1 ، ص55-67 .

به أن يصبح مسلماً ، فيتأخى مع المسلم ، وإذا أقام في بلاد المسلمين ، فعليهم أن يخفروا ذمته ، وأن يطلقوا له حرّيته ... وليست التّصوص الدّينيّة هي التي تشهد بما نقول فحسب ، فالمستشرقون والوقائع تشهد بذلك " (2) ، وفي حياة أبي إسحاق الصّابي وأدبه ، ما يشهد بذلك أيضاً ! وهذا ما سوف يعرض له البحث في مباحثه الثلاثة الآتية .

المبحث الأوّل :

" الأديب أبو إسحاق الصّابي في ظلّ الحضارة الإسلاميّة "

عاش الأديب أبو إسحاق الصّابي (313 - 384هـ) (3) في القرن الرابع الهجريّ ، في ظلّ الحضارة الإسلاميّة العبّاسيّة ، حياة حفظت عليه وعلى إخوانه الصّابئة دينهم وعقيدتهم التي يعتنقون ، فقد كتّبت لهم كتاب عن أمير المؤمنين المطيع لله ، أقرّ فيه إلى جانب صيانتهم ، وحرّاستهم ، والذبّ عن حرّيمهم ، ورفع الظلم عنهم ، ونحو ذلك ، التخلية بينهم وبين مواريتهم ، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها ، لأنّه لا يجوز في حكم الإسلام ، أن يتوارث أهل ملتين (4) .

لقد كان أبو إسحاق الصّابي من نسّاك الصّابئة ، متشدّداً في صابئتيّه (1) ، و" يحكى أنّ الخلفاء والملوك والوزراء أرادوه كثيراً على الإسلام ، وأداروه بكلّ حيلة ، وتمنية جليّة ، حتى إنّ معرّ الدولة (بختيار) عرض عليه الوزارة إن أسلم ، فلم يهده الله للإسلام ، كما هداه لمحاسن الكلام ، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه ، وسنّ قلمه " (2) .

(2) العثّ ، د. يوسف ، روح الحضارة الإسلاميّة ، مجلة حضارة الإسلام ، العدد 10 ، دمشق ، 1961م ، ص 45 .
(3) انظر ترجمته المستفيضة : الثعالبيّ ، أبو منصور عبد الملك النيسابوريّ (ت 249هـ) ، بئيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ط 1 ، تحقيق د. مفيد محمّد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، 1983م ، م 2 ، ص 287-292 . الحمويّ ، ياقوت (ت 626هـ) ، معجم الأديباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ط 1 ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت ، 1993م ، مج 1 ، ص 130-148 .

(4) انظر : الصّابي ، أبو الحسن بن المحسن (ت 448هـ) ، الوزراء ، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار فزّاج ، دار الأفاق العربيّة ، القاهرة ، 2003م ، ص 270 . متز ، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ ، ج 1 ، ص 57-58 .

(1) ورد ذكر هذه الطائفة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع : سورة البقرة ، الآية 62 ، وسورة المائدة ، الآية 69 ، وسورة الحجّ ، الآية 17 . والصّابئة ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى ، وقيل هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، وقيل يعبدون الكواكب والنجوم ، وقيل هم طائفة من أهل الكتاب ، وقيل لا دين لهم ، والله تعالى أعلم . انظر : الطبريّ ، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت 310هـ) ، تفسير الطبريّ : جامع البيان عن تأويل القرآن ، ط 1 ، تحقيق د. صلاح عبد الفتاح الخالدي وإبراهيم محمّد العليّ ، دار القلم ، دمشق ، والدار الشاميّة ، بيروت ، 1997م ، مج 1 ، ص 253-254 .
(2) الثعالبيّ ، بئيمة الدهر ، م 2 ، ص 288 .

ويروى أنّه حضر مائدة الوزير المهلبيّ ، " فامتنع عن الأكل ، لباقلاء كانت عليها ، لأنّه محرّم على الصابئة كيفما كان من السمك ولحم الخنزير ولحم الجمل وفراخ الحمام والجراد ، فقال له المهلبيّ : لا تبرد (3) وكل معنا من هذه الباقلاء ، فقال : أيّها الوزير ، لا أريد أن أعصي الله في مأكول ، فاستحسن ذلك منه " (4) .

نستنتج من هذه النصوص التسامح الدينيّ الكبير الذي حظي به الصابئة ، وعلى رأسهم أبو إسحاق ، في الحضارة الإسلاميّة ، إذ لم يجبره أحد من الخلفاء والملوك والوزراء على اعتناق الإسلام ، وهم قادرون على ذلك ! لا بل رغبوه ، وتودّدوا إليه ، وعندما أبى لم ينقصوه حقه ، بل اعترفوا بفضله وأدبه وعلمه ، وجعلوه على رأس ديوان الرسائل ! (5) ، وما أجمل استحسان الوزير المهلبيّ لمحافظة أبي إسحاق الصابي على شعائر دينه ، برفضه أكل الباقلاء ، التي لا حرج في أكلها عند جميع المسلمين ، ولا شك في أنّ هذه المعاملة الحسنة ، هي التي دفعته إلى المعاملة بالمثل ، فإذا بنا نجده يحسن عشرة المسلمين ، ويحترم شعائر دينهم ، ذلك الدين المتسامح ، الذي يقرّر بأنّ " الإنسان كائن حرّ ، مختار في هداه وضلاله " (6) .

وقد توثقت الصلة بين أبي إسحاق الصابي وكثير من رجالات عصره من المسلمين ، أبرزهم : الوزير المهلبيّ ، والصاحب بن عبّاد ، والشريف الرضيّ (1) ، وكانت هذه الصلات الحميمة شاهدا ناصعا على التسامح الدينيّ ، في ظلّ الحضارة الإسلاميّة .

فهذا الوزير المهلبيّ " لا يرى إلا به (أي بأبي إسحاق) الدنيا ، ويحنّ إلى براعته ، وتقدّم قدمه ، ويصطنعه لنفسه ، ويستدعيه في أوقات أنسه " (2) ، وليس أدلّ على محبّة المهلبيّ لصديقه الصابي ، وتكرّمه إيّاه ، من هذا الخبر الذي يرويّه الصابي نفسه ، عندما جاءه المهلبيّ معزيًا له بوالده .

يقول الصابي : " لما توفي أبو الحسين هلال أبي ، جاءني أبو محمّد المهلبيّ معزيا به ، فحين عرفت خبره في تعديته إلى مشرّعة داري الشاطئة بالزاهر ، بادرت لتلقيه ، واستغفائه من الصعود ، فامتنع من الإجابة إلى ذلك ، وصعد وجلس ساعة يخاطبني فيها بكلّ ما يقوّي النفس ويشرح الصدر ، ويصف والدي ويقرّظه لي ، ويقول : ما مات من كنت له خلفا ، ولا

(3) لا تبرد : لا تقتدر ، من برّد أي سكن وفتّر ، يقال : جدّ في الأمر ثمّ برد أي فتّر . انظر : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ت710هـ) ، لسان العرب ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، 1997م ، مادة (برد) ، مج1 ، ص186 .

(4) الثعالبيّ ، بتيمة الدّهر ، م2 ، ص288-289 .

(5) نفسه ، م2 ، ص289 .

(6) الخطيب ، د. شريف الشيخ صالح ، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك ، ط1 ، الدار العثمانيّة ، عمّان ، ومكتبة الرشد ، بيروت ، 2004م ، مج1 ، ص104 .

(1) انظر : الحسنات ، حمزة ، أبو إسحاق الصابي : حياته وأدبه ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف د. ياسين عايش ، الجامعة الأردنيّة ، 2008م ، ص22-45 .

(2) الثعالبيّ ، بتيمة الدّهر ، م2 ، ص289 .

فقد من كنت منه عوضا ، ولقد قرّرت عين أبيك بك في حياته ، وسكنت مضاجعه إلى مكانك بعد وفاته ، فقبّلت يده ورجله ، وأكثرت من الثناء عليه ، والدعاء له ... ثم نهض ، وأقسم علينا ألا يتبعه أحد منا ، وأنفذ إليّ في بقية ذلك اليوم خمسة آلاف درهم ، وقال : استعن بها على أمرك . ولم يبق أحد من أهل الدولة إلا جاءني بعده معزيا . ثم اجتاز بي من الغد في طيّاره (3) ، ووقف واستدعاني وأمرني بالنزول معه ، فبعد جهد ما تركني بقية اليوم " (4) . والمتأمل في هذا الخبر يدرك مقدار تلك المحبة بين ذلكما الرجلين ، ومقدار ذلك التسامح بين تلكما الديانتين . وهذا الصاحب بن عبّاد يكنّ أواصر المحبة والوداد لصديقه الصابي ، ويعجب بعلمه وأدبه فيقول : " كتّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعني نفسه " (5) . وقد كان يكرمه ويهدي إليه ، وكان بينهما مكاتبات ومراسلات إخوانية شعرية ونثرية (6) ، ومن لطيف ما قيل في علاقتهما الحميمة :

تعانقتُ أغصانُ بانٍ بالجمي فأشبهتُ أعطافَ أحبابي
ومذ صبا قلبي صبا صاحبي أه على الصاحب والصابي (1)

أما صداقة الشريف الرضي للصابي ، فقد أفردت لها المبحث الثالث في هذه الدراسة ، لأنها الثمرة الأنضج ، والصورة الأبهج للتسامح الديني . وخلاصة القول في هذا المبحث أنّ الصابي عاش في ظلّ الحضارة الإسلامية ، أمنا على دينه ، متنعمًا بتطبيق شرائعه ، لم يتعرّض لأذى في هذه السبيل ، بل نال الحظوة والإكرام ، حتى وصل إلى رئاسة ديوان الرسائل . والسؤال الآن : كيف أثّرت وأثّرت الحضارة الإسلامية المتسامحة في نتاج هذا الأديب ؟ ولعلّ في المبحث الثاني الإجابة الوافية الشافية .

المبحث الثاني :

" أثر الحضارة الإسلامية في أدب أبي إسحاق الصابي "

(3) هو أحد أنواع القوارب المستخدمة في ذلك العصر .
(4) الحموي ، معجم الأدباء ، مج 1 ، ص 133-134 .
(5) الثعالبي ، نبتة الدهر ، م 2 ، ص 292 .
(6) انظر ، نفسه ، م 2 ، ص 326 . الصابي ، أبو إسحاق (ت 384هـ) ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، تحقيق شكيب أرسلان ، دار النهضة الحديثة ، بيروت ، ص 404-411 .
(1) المحبّي ، محمّد أمين بن فضل الله بن محبّ الدين (ت 1111هـ) ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، ج 3 ، ص 404 .

إننا نستطيع أن نتلمس آثار الحضارة الإسلاميّة ، الفكر الإسلاميّ خاصّة ، في جلّ ما وصل إلينا من أدب أبي إسحاق الصابي ، وإن كان يظهر جلياً في رسائله الفنيّة ، أكثر منه في شعره ، وربّما يعود السبب في ذلك إلى ضياع ديوانه ، وقلة ما وصل إلينا من أشعاره ، ثمّ أنّه كان رئيساً لديوان الرسائل ، معنيّاً بالكتابة الترسليّة عن الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ والقضائيّ ، في حضارة القرن الرابع الهجريّ ، بصورة يتجلى فيها التسامح والتراحم .

لقد كانت العهود والرسائل الصادرة عن الحكّام ، في ذلك الزمن ، تتسامح مع التّصارى ، وتوصي بحسن معاملتهم ؛ لأنّهم أهل ذمّة مقيمين في أرضها ، ومثال ذلك ، العهد الذي كتبه أبو إسحاق الصابي عن الخليفة الطائع لله ، وفيه يوصي جباة الجزية من أهل الذمّة ، بأن يراعوا أحوالهم ، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم ، ولا يأخذوا الجزية من النّساء ، ولا الأطفال ، ولا الشيوخ ، ولا المرضى ، ولا الفقراء ، ولا الرّهبان ! وفي ذلك يقول :

" وإلى جباة جماجم أهل الذمّة ، بأن يأخذوا منهم الجزية في المحرّم من كلّ سنة ، بحسب منازلهم في الأحوال ، وذات أيديهم في الأعمال ، وعلى الطبقات المطبّقة فيها ، والحدود المحدودة المعدودة لها ، ولا يأخذوها من النّساء ، ولا ممّن [لم] (2) يبلغ الحلم من الرّجال ، ولا من ذي سنّ عالية ، ولا ذي عاهة بادية ، ولا فقير معدم ، ولا مترهّب متبتل ، وأن يراعي جماعة هؤلاء العمّال مراعاة يسرّها ويظهرها ، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبيديها ، لنلا يزولوا عن الحق الواجب ، ويعدلوا عن السنن اللاحب (1) ، فقد قال الله عزّوجلّ : " وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا " (2) " (3) .

ويقول في عهد آخر ، كتبه عن الخليفة المطيع لله : " وإلى عمّال الجوالي (4) بأن يستخرجوا في المحرّم من كلّ حول ، من رجال أهل الذمّة البالغين الواجدين ، جزية رؤوسهم على حسب احتمال أحوالهم ، في وُجدهم وإعدامهم ، وألا يأخذوا شيئاً من النّساء ، ولا من الأطفال ، ولا من ذوي العاهات ، ولا من الشيخ الفاني ، ولا من الفقير المعدم ، وأن يراعهم حتى يمتثلوا ... " (5) .

صحيح أنّ الصابي يكتب ما يؤمر به في هذا المقام ، ولكنّ هذه الرسائل والعهود تنسب إلى قلمه ، وتتبع من بنات أفكاره ، وتعبّر عن التسامح الذي أريد له أن يكون ، وأظنّ الجباة لو

(2) زيادة يقتضيها السياق ، ولم ترد في الأصل .

(1) اللاحب : الواضح ، البين . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ل ح ب) ، مج 5 ، ص 480 .

(2) سورة الإسراء ، الآية 34 .

(3) الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص 163 .

(4) الجوالي : الطوّافون لجمع الجزية . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (ج و ل) ، مج 1 ، ص 490 .

(5) الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص 202 .

كلفوا بجمع المال من المسلمين ، لأمر من أمور الدولة ، لما استطعنا أن نزيد في الوصايا التي ذكرها الصابي شيئاً !

والصابي في رسائله ، يخوض في أمور العقيدة الإسلاميّة : صفات الله تبارك وتعالى ، والجنة ، والنار ، والبعثة النبويّة ، والتوحيد ، والشرك ، نحو قوله :

" الحمد لله ربّ العالمين ، الملك الحقّ المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ المجيد ، الذي لا يوصف إلا بسلب الصّفات ، ولا ينعت إلا برفع التّعوت ، الأزليّ بلا ابتداء ، الأبديّ بلا انتهاء ، القديم لا منذ أمد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا عن مادّة استمدّها ، الصّانع لا بألة استعملها ، الذي لا تدركه الأعين بالحاظها ، ولا تحدّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بمرورها ... خلق فأحسن ، وأسّس فأتقن ، ونطق ففصّل ، وحكم فعدل ، وبرأ البرايا صنوفاً وضروبا ، وقسّمها فرقا وشعوبا ، واختصّ منها النّاس بالألباب والأفهام ، وفضّلهم على الجمادات والأنعام ، وأعدّ لمحسنهم جنةً وثوابا ، ولمسيئهم نارا وعقابا ، وبعث إليهم رسلا منهم ، يهدونهم إلى الصّراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميمة ، والمورد الوخيم .

فكان آخرهم في الدّنيا عصرا ، وأولهم يوم الدّين ذكرا ، وأرجحهم عند الله ميزانا ، وأوضحهم حجّة وبرهانا ، وأبعدهم في الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمّد صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذي اتخذ الله صفياً وحبيبا ، وأرسله إلى عباده بشيرا ونذيرا ، على حين ذهاب منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم ، أنوفهم في المعاصي حميّة ، ونفوسهم في غير ذات الله أبيّة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ، ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم ، يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ... حتى ضرب الحقّ بجرائمه (1) ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ... فصلى الله عليه وعلى آله الأخيار الطيّبين ، الأبرار الطاهرين ، صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدّته ، رافعة درجته ، قاضية حقه ، مؤدّية فرضه " (2) .

(1) الجران : مقدّم عنق البعير من المذبح إلى المنحر ، فإذا برك البعير ليستريح فمدّ عنقه على الأرض ، قيل ألقى جرائمه ، وفي حديث عائشة ، رضي الله عنها ، حتى ضرب الحقّ بجرائمه ، أرادت أنّ الحقّ استقام وقرّ في قراره ، ويكثر استعمال هذه الجملة بمعنى الاستقرار. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (جرن) ، مج1 ، ص414 .
(2) انظر : الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص19-24 وانظر أيضاً : ص64-67 ، 120-122 .

إنّ هذا النص الترسليّ يماثل ما يكتبه علماء المسلمين ، وأكابر كتابهم ، حتى قال ابن الأثير عن هذه التحميدة : إنّها " تصلح أن تكون في صدر مصنّف ، من مصنّفات أصول الدين " (3) .

ولننظر إلى الصابي كيف يوظف آيات القرآن الكريم توظيفا فنّيّا جميلا ، يهدف إلى إقناع المتلقين بالمعنى الذي يُراد ، وإمتاعهم بالبيان الذي أراد ، وذلك في ختام كلّ وصيّة في العهد الذي كتبه عن الخليفة الطائع لله ، إذ عندما أوصى بالتقوى قال : " أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة ، والجنّة الحصينة ، والطود الأرفع ، والمعاذ الأمتع ، والجانب الأعزّ ، والملجأ الأحرز ، وأن يستشعرها سرّا وجهرا ، ويستعملها قولاً وفعلاً ... قال الله عزّ وجلّ " وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ " (4) ، وقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (1) ، وقال : " اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " (2) ، إلى آي كثيرة " (3) .

وعندما أوصى بتعهّد القرآن الكريم قال : " وأمره أن يتخذ كتاب الله إماما متّبعا ، وطريقا مهّيعا (4) ، ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره ، ويملا بتأمّله أرجاء صدره ، فيذهب معه فيما أباح وحظر ، ويقتدي به إذا نهى وأمر ، ويستبين ببيانه إذا استغلقت دونه المعضلات ، ويستضيء بمصابيحه إذا غمّ عليه في المشكلات ، فإنّه عروة الإسلام الوثقى ، وحجّته الوسطى ... قال الله عزّ وجلّ : " وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " (5) .

وعندما أوصى بالمحافظة على الصلوات قال : " وأمره بأن يحافظ على الصلوات ، ويدخل فيها في حقائق الأوقات ، قائما على حدودها ، متبعا لرسومها ، جامعا فيها بين نيّته ولفظه ، متوقيا لمطامح سهوه ولحظه ، منقطعاً إليها عن كلّ قاطع لها ، مشغولا بها عن كلّ شاغل عنها ، متنبّتا في ركوعها وسجودها ، مستوفيا عدد مفروضها ومسنونها ... قال الله عزّ وجلّ :

(3) ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين (ت637هـ) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ط2 ، تحقيق أحمد الحوفي وبيدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1966م ، مج3 ، ص109 .

(4) سورة الطلاق ، الأيتان 2-3 .

(1) سورة آل عمران ، الآية 102 .

(2) سورة التوبة ، الآية 119 .

(3) الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص144-148 .

(4) الطريق المهيع : الواضح الواسع البين . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (هيع) ، مج6 ، ص378 .

(5) سورة فصلت ، الأيتان 41-42 . الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص149 .

" إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا " (6) ، وقال عز وجل : " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ " (7) .

وعندما أوصى بالمحافظة على صلاة الجمعة ، وعماراة المصليات والمساجد قال : " وأمره بالسعي في أيام الجمعة إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية ، بعد التقدم في فرشها وكسوتها ، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها ، واستسعاء الناس إليها ، وحضهم عليها ، أخذين الأهبة ، منتظفين في البرّة ، مؤدّين لفرائض الطهارة ... قال الله في هذه الصلاة : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ " (8) ،

وقال في عماراة المساجد : " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ " (1) .

وهكذا ، رأينا كيف كان الصابي يتحدث عن شعائر الإسلام وأخلاقياته ، وكيف كان يحفظ القرآن الكريم ، حفظاً يدور على طرف لسانه ، وسنّ قلمه ، وفق تعبير الثعالبي . وقد تجلّى تأثر الصابي بالحضارة الإسلاميّة في شعره أيضاً ، وهذه بعض أبيات قالها مهتئنا بعيد الفطر (2) :

أسيدنا هُنَّتْ نِعْمَاكَ بِالْفَطْرِ	وَوَقَيْتَ مَا تَخْشَاهُ مِنْ نُوبِ الدَّهْرِ
مضى الصومُ قد وَقَيْتَهُ حَقَّ نِسْكَه	وَوَقَاكَ مَكْتُوبِ الْمَثُوبَةِ وَالْأَجْرِ
كَلِفْتَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِيهِ فَلَا تَزَلْ	مِنْ اللَّهِ فِيمَا تَرْتَجِيهِ عَلَى ذِكْرِ
هَجَرْتَ هَجُودَ اللَّيْلِ فِيهِ تَهَجُّدًا	وَصَبِرًا عَلَى طَوْلِ الْقِرَاءَةِ لِلْفَجْرِ
فَلَوْ نَطَقْتَ أَيَّامَنَا بِاعْتِقَادِهَا	لِنَاجَتِكَ لَفِظًا بِالِدَعَاءِ وَبِالشُّكْرِ
وَلِلْفَطْرِ رِسْمٌ لِلسُّرُورِ وَسُنَّةٌ	وَمِثْلَكَ مِنْ أَحْيَا لَنَا سُنَّةَ الْفَطْرِ

ومما قاله مهتئنا بعيد الأضحى (3) :

صَلِّ يَا ذَا الْعُلَا لِرَبِّكَ وَانْحَرْ	كُلُّ ضِدِّ وَشَانِي لَكَ أَبْتَرُ
أنت أعلى من أن تكونَ أضاحي	لكَ قروماً من الجمالِ تعقرُ
بل قروماً من الملوك ذوي السؤ	دد تيجانها أمامك تنتثرُ

(6) سورة النساء ، الآية 103 .

(7) سورة العنكبوت ، الآية 45 . الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص 149-150 .

(8) سورة الجمعة ، الآية 9 .

(1) سورة التوبة ، الآية 18 . الصابي ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، ص 150-151 .

(2) الثعالبي ، ينيمة الدهر ، م 2 ، ص 327-328 .

(3) الشانئ : الميغض . الأبتَر : الأقطع الذي لا ولد له . قروم الجمال : صغارها . قروم الملوك : السادة المعظمون . نفسه ، م 2 ، ص 330 .

كَلَّمَا خَرَّ سَاجِدًا لَكَ رَأْسٌ مِنْهُمْ قَالَ سَيْفِكَ : اللهُ أَكْبَرُ

إنَّ المتأمل في المقطوعة الأولى ، لا يخطئ تأثر الصابي الكبير بالألفاظ والمصطلحات الشرعية الإسلامية ، في كل بيت منها ، مثل : عيد الفطر ، والصوم ، وحق النسك ، ومكتوب المثوبة والأجر ، وذكر الله ، وهجود الليل ، وقرآن الفجر ، والدعاء ، والشكر ، وسنة الفطر .
أما المقطوعة الثانية فجاء فيها التناصُّ و سورة " الكوثر " جليًا ، حيث استثمر الصابي ألفاظ السورة الكريمة في بناء الصورة الفنية النموذجية العليا (4) للممدوح ، مثل : صلِّ لربِّك ، وانحر ، وشانئ ، وأبتر ، بالإضافة إلى لفظتي : أضاحي وساجد ، وتكبيرات العيد : الله أكبر .
لقد بلغ التسامح الديني عند المسلمين ، مبلغًا أذن لرجل صابئ ، بالحديث عن أمور العقيدة الإسلامية ، وشرائع الإسلام ، وأخلاقياته ، ومعجزته الخالدة : القرآن الكريم ، صحيح أنه لا يطعن في ذلك ، بل يؤكده ، ويحض عليه ، " حتى ليظنَّه قارئه أحد المؤمنين بالإله الواحد ، وبكتبه ورسله وقضائه وقدره " (1) ، ولكنَّ مجرد الخوض في هذا الغمار العقائدي التشريعي الخطير ، مظهر حضاري ينبغي التوقف عنده ، والتنبيه إليه .
وإنَّ بيئة يحيا بها مثل هذا الكاتب ، وتأذن له بمثل هذا الخوض في معتقداتها وشرائعها ، لبيئة جدّ متسامحة ، وبيئة جدّ متحضرة !

المبحث الثالث :

"صداقة أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي ثمره التسامح الديني"

لقد جوزي الصابي على موقفه الحسن من الإسلام أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضي ، إمام الأشراف في عصره ، ونقيب الطالبين ، ودارت بينهما رسائل شعرية ونثرية ، تفيض محبة ومودة وصدق إخاء ، وهي بمجملها مثال واضح على التسامح الديني ، لأنها تربط الأواصر بين نقيضين : مؤمن (شريف) وغير مؤمن (صابئ) !

(4) انظر حول مصطلح " الصورة الفنية النموذجية العليا " ، زكي ، د. علاء الدين ، المظاهر الحضارية في الرسائل الفنية في القرن الرابع الهجري ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، إشراف د. ياسين عايش ، الجامعة الأردنية ، 2012م ، ص 232.
(1) الشكعة ، د. مصطفى ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية : كتاب النثر ، ط 2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1974م ، ص 527 .

وقد اتسمت العلاقة بين هذين الصديقين بطابع الودّ والإخلاص ، وكان للروح الأدبيّة المشتركة أثر كبير في توثيق الصلات بينهما ، فقدّما لنا علاقة إنسانيّة وأدبيّة متميّزة ، عبّر عنها الصابي بقوله في مديح الشريف الرضيّ (2) :

أبا كلّ شيءٍ قيلَ في وصفه حسنٌ	إلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن
يوحّدها للاختصار إشارة	إلى جملةٍ تفصيلها لك مرتهن
تحوّلتها في خائفةٍ وخليقةٍ	فإن لم تكن أنت الخليق بها فمن
ألكني إلى ابن الموسويّ ألوكة	بلا دحل يدنو إليها ولا دخن
بأني مذ بايعتني الودّ جاعلٌ	سواديّ من قلبٍ وعينٍ له ثمن
فإن رُمته من صادقٍ غير ماذقٍ	فدونك صدري مسكناً تحته سكن

وجليّ في هذه الأبيات مبلغ حبّ الصابي للشريف الرضيّ ، إذ جمع المحاسن كلها فيه ، واستوطن وداده سويداء قلبه وعينه ، وأسكنه فسيح صدره (1) ، وأمر آخر لا مندوحة عن ذكره ، وهو الإشارة إلى حق الشريف في الخلافة ، كما في البيت الثالث ، إذ " إن الصابي وهو الأديب ، لا يحترم إلا من يتصف بهذه الصفة ، ليتلقى نفس الشعور منه عندما يتولى المسؤولية ، وقوي هذا الشعور منه عندما لمس في الشريف طموحه إلى الخلافة ، وسعيه وراء تحقيقها ، فكان الصابي يحرص أيضا على تحقيقها له ، ويغذيه بهذه الفكرة " (2) .

وقد أجابه الشريف بقصيدة على الروي نفسه ، عبّر فيها عن حبه الكبير ، وإخلاصه العميق ، لهذا الصديق الوفيّ ، قال فيها (3) :

مَنْ مبلغ لي أبا إسحاق مألوكَة	عن جنو قلبٍ سليمٍ السرِّ والعلنِ
جرى الودادُ له مني وإن بَعُدْتُ	منا العلائقُ مجرى الماء في الغصنِ
لقد توامقَ قلبانا كأنّهما	تراضعا بدمٍ الأحشاء لا اللبنِ
إن يدنُ قومي إلى داري فألفهم	وتنأ عني وأنت الروح في بدني
فالمُر يسرخُ في الأفاق مضطرباً	ونفسه أبدأ تهفو إلى الوطنِ
والبعدُ عنك بلاني باستكانهم	إنّ الغريب لمضطرّاً إلى السكنِ
أنت الكرى مؤنساً طرفي وبعضهم	مثلّ القذى مانعاً عيني من الوسنِ

(2) الصابي (ت384هـ) ، والرّضي (ت406هـ) ، رسائل الصابي والشريف الرضيّ ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، 1961م ، ص27-30 . ألكني : كن رسولي وتحمل رسالتي . الألوكة : الرسالة . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (لوك) ، مج5 ، ص537 .

(1) روى الثعالبي أنّ بين هذه القصيدة وموت الصابي اثنا عشر يوماً ، ثم قال : " ولعلها آخر شعره " ، وهكذا يكون الصابي قد ختم بلاغته بهذه الصداقة الرائعة ! الثعالبي ، ينميّة الدهر ، مج2 ، ص359 .

(2) الخاقاني ، د. عليّ ، شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم ، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1962م ، مج1 ، ص163 .

(3) الصابي ، والرّضي ، رسائل الصابي والشريف الرضيّ ، ص34-36 .

يدهشنا هذا التسامح الديني ، الذي جعل الشريف يعدّ الصابي الأخ في الدم ، والروح في البدن ، والسكن في الوطن ، وزيادة على ذلك يقدمه على بعض أهله ، جزاء إخلاصه وعميق مودّته ! وبذا قدّم لنا هذان الصديقان " درسا في التسامح والتوادّ ، ودليلا على أن السمات المشتركة التي يُبنى عليها التقارب والتوادّ ، يمكن أن تتخطى عصبية الدين على ألا تخالفه " (4). وقد كان الصابي عارفا ومقدّرا لنسب الشريف الرضيّ ، وهو القائل فيه (5) :

ألا أبلغا فرعا نمتُهُ عروفتُهُ
إلى كئِلِّ سامٍ للمفاخرِ بانِ
محمّداً المحمود من آل أحمدٍ
أبا كلِّ بكرٍ في العلى وعوانِ
أبا حسنٍ قطعت أحشاء حاسدٍ
طواها على البغضاء والشنآنِ

فأجابه الشريف بقصيدة ، أكّد فيها اصطفاؤه إيّاه دون الكثير من الأصحاب والأقارب والإخوان ، معلنا تمازج قلوبهما ، في أخوة إنسانيّة ، قلّ لها نظير ! يقول الشريف (1) :

أكرّرُ في الإخوان عينا صحیحَةً
على أعينِ مرضى من الشنآنِ
فلولا أبو إسحاق قلّ تشبّثي
بِخِلِّ وضربي عنده بجرانِ
إخاءٌ تساوى فيه أنسا وألفةً
رضيغ صفاً أو رضیغ لبانِ
تمازج قلبانا مزاج أخوةٍ
وكلّ طلوبى غاية أخوانِ
وغيرك ينبو عنه طرفي مجانباً
وإن كان منّي الأقرب المتداني
ورُبّ قريبٍ بالعداوة شاحِطٍ
ورُبّ بعيدٍ بالموودة دانِ
إذا ما رعاك الله يوماً فقد قضى
مأربَ قلبي كلّها ورعاني

وهكذا ، في كلّ قصيدة مدّح فيها الصابي الشريف الرضيّ ، ردّ عليه الشريف بقصيدة مدح مقابلة ، ليؤكد له مودّته ، وأتّه يکنّ له وافر مشاعر الحبّ والإكرام .

ولم تقتصر رسائلهما الإخوانيّة على الشعر ، بل خطّا رسائل نثرية ، في تناغم جميل ، عطر الصفحات بألفاظ البلاغة والبيان ، ففاح عبيرها بمعاني التسامح والعرفان .

من تلك الرسائل البديعة ، قول الشريف الرضيّ مخاطبا صديقه الصابي :

" إذا كانت القلوب - أطال الله بقاء سيدي الشيخ ، وأدام عزّه وتأييده وسعادته ونعمته - تتناجى بالمقة ، والعيون تتلاحظ عن محض المودة والثقة ، والباطن في الصفاء يصدّق العالن ، والخافي في الوفاء يحقق الظاهر ، ألغيت المعاذير بالعوائق التي تعوق عن المزاورة ، والحواجز التي تحجز عن المواصلة ، واعتمد على صفاء النيات ، وصحيح أديم الطويّات .

(4) السعديّ ، د. قيس ، الشريف الرضيّ وأبو إسحاق الصابي : صداقة خلّدها التاريخ ، موقع على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) :

(5) الصابي ، والرّضي ، رسائل الصابي والشريف الرضيّ ، ص 17 .

(1) الصابي ، والرّضي ، رسائل الصابي والشريف الرضيّ ، ص 23-26 .

وكان الواحد منّا في الرّورة التي ينتهز فرصتها ويهتبل غرّتها ، غير مشكور ولا محمود ، كما يكون في الانقطاع بكثرة الشغل وترادف الثقل ، غير ملوم ولا معذول . وهذه جملة تنوب عن التفصيل ، وقليل يكفي مؤونة التّكثير ، في العذر لتأخري عن حضرته ، وقضاء ما يجب عليّ من حقه . والله تعالى ينهضني لذلك ، ويوفّقني له ، ويطيل لي بقاءه ، ويمتعي به " (2) .

وجليّ ما تفيض به هذه الرسالة من مشاعر المحبّة والمودّة بين الرّجلين ، وبلغت انتباهنا مناداة الشّريف للصّابي بـ " سيّد الشيخ " ! واعتذاره عن التأخر عنه ، وكثرة دعائه له ، بأن يطيل الله بقاءه ، ويديم عليه عزّه وتأييده وسعادته ونعمته ؛ كي يمتعه برفقته وجميل صحبته . وقد جاء جواب الصّابي ، مماثلاً لرسالة الابتداء ، بالافتتاح بالدعاء ، والتلطف بالخطاب ، وإعلان التشوّق والتشوّف لرؤية الأحباب ، يقول الصّابي :

" وصلت رقعة سيّدنا الشّريف النقيب ، أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده وعزّه وسموّه وعلوّه ونعمته ، بادئة بالفضل والتفضل ، وسابقة إلى الكرم والتطوّل ، ولولا العلة التي قد أخذت بمخفّي ، وجثمت على مدارج نفسي ، لما أخللت بقصد حضرته ، والمواظبة على خدمته ، فإله سبحانه يعلم أنّ عيني ما تكتحل بغرّة هي أعزّ من غرّته ... " (1) .

وعندما قبل عذره الشّريف ، وهذا ديدن المحبّ في معذرة حبيبه ، وجّه اللوم إلى نفسه ، في التقصير بحق صديقه ، وأقسم على تمكّن محبّته في صدره ، محبّة ليس لأحد من الناس فيها شريك ! يقول الشّريف :

" فتالله إنّه الحقيق بالعذر ، وأنا الحقيق باللوم والعذل ، إن لم يشهد لي قلبه بصدق الطويّة ، ويحملني على باطن النّيّة ، ولم لا وقد وضعنا قدمينا في قبّال (2) واحد ، واستهنا في طارف من الأدب وتالد ؟ والله إنني لأتمنّى أن يفرج له صدري ، فيرى فيه مكانه المكين ، وودّه المصون ، اللذين لا يشاركه فيهما مشارك ، ولا يملك موضعه منهما مالك " (3) .

ومن جميل تطف الصّابي مع صديقه الشّريف ، وإعجابه بأدبه المُنيف ، رغبته في تقبيل يديه ، مع أنّه أسنّ منه ، وربّما كان في عمر أبيه ! وفي ذلك يقول : " فلو استطعت أن أسعى إلى أنامله التي سطرت تلك البدائع ، ورصفت تلك الجواهر ، لفعلت مسارعا ، حتى أودعهنّ عن كلّ حرف قبلة ، وأستلمهنّ جملة ، إذ كنّ للفضائل معادن ، وللمحاسن مكان " (4) .

(2) نفسه ، ص 77 .

(1) الصّابي ، والرّضي ، رسائل الصّابي والشّريف الرّضيّ ، ص 80 .

(2) القبّال : زمام النعل ، وهو السير الذي يكون بين الإصبعين . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (قبل) ، مج 5 ، ص 194 . وقوله : " وضعنا قدمينا في قبّال واحد " كناية عن الاتحاد والملازمة .

(3) الصّابي ، والرّضي ، رسائل الصّابي والشّريف الرّضيّ ، ص 100-101 .

(4) نفسه ، ص 94 .

وإذا كانت محبة بعض الأصدقاء تتعرض للفتور أو الانقطاع ، فإن محبة الشريف الرضيّ وصديقه الصابي استمرت طيلة حياتهما ، فما زادت الأيام إلا تمكنا ووثوقا ، ليس هذا وحسب ، بل لم تنقص شيئا بعد وفاة الصابي ، وإنما ازدادت ، وازداد وفاء الشريف الرضيّ لصديقه ، فبكاه بكاء حارًا ، كلما استبدّ به الحنين ، ولوّعه الفراق ، وهاجت به الذكريات ، ورثاه شعرا ونثرا ، كما في قصيدته الشهيرة التي بلغت اثنين وثمانين بيتا : " أعلمت من حملوا على الأعواد " ، والتي تنبئ عن حرقه صادقة ، وحزن عميق ، فنالت إعجاب النقاد قديما وحديثا ، حتى قال الثعالبيّ : إنّها " قصيدة فريدة ، أفصح بها عن بُعد شأوه في الشعر ، وعلوّ محله في كرم العهد ، لحسن ديباجتها ، وكثرة رونقها ، وجودة ألفاظها ومعانيها " (5) .

وسوف أقبس من هذه القصيدة بضعة أبيات ، شاهدة على تسامح المسلم (1) ، حتى مع من غيَّبه الموت تحت الثرى ، لأنّ له حقا يجب حفظه ، وذمة يجب مراعاتها في حياته وبعد مماته ، وهذا هو حال الشريف مع الصابي ، حيث يقول (2) :

أعلمت من حملوا على الأعوادِ	أرأيت كيف خبا ضياءُ الناديِ
ما كنتُ أعلمُ قبلَ حطكَ في الثرى	أنّ الثرى يعلو على الأطوادِ
لا ينفدُ الدمعُ الذي تبكى بهِ	إنّ القلوبَ له من الأمدادِ
لا تطلبي يا نفسُ خلا بعدهِ	فلتمثله أعياءُ على المرتادِ
الفضلُ ناسبَ بيننا إذ لم يكنْ	شرفي مناسبه ولا ميلادي
إلا تكنْ من أسرتي وعشائري	فلأنتِ أعلقُهُمُ يداً بودادي
إنّ الوفاءَ كما اقترحتَ فلو تكنْ	حيّاً إذا ما كنتِ بالمزددِ
فاذهبْ كما ذهبَ الربيعُ وإثره	باقٍ بكلِّ خمائلٍ ونجادِ

وجليّ هنا أنّه يكرّر معانٍ ذكرها من قبل ، في المحبة والإخاء والوفاء ... إلخ ، ولكن الإشارة تجدر إلى البيتين الخامس والسادس ، اللذين أكّدا على أنّ اختلاف النسب ، حتى لو كان مرده ينتهي بآل البيت الأطهار الأخيار ، فإنّه لا يمنع من إخلاص الوداد ، والاعتراف بالفضل ، وهذا من حسن فهم الشريف لأخلاق الإسلام ، وتعاليمه السمحة .

وليست تلك هي المرتبة الوحيدة للشريف ، بل رثى صديقه في قصيدتين أخريين (3) ، عندما اجتاز بقبوره ذات يوم ، فحرّكت قيم الصداقة ما كمن في قلبه من مشاعر وأحاسيس ، باتت

(5) الثعالبيّ ، ينّيمة الدهر ، مج2 ، ص362 .

(1) مع أنّ أبيات القصيدة كلها شاهدة على التسامح الدينيّ .

(2) انظر : الصابي ، والرّضي ، رسائل الصابي والشريف الرضيّ ، ص45-54 .

حزينة على فقدان هذا الخليل ، ففاضت دموعه ، وجادت قريحته ، ولكنها أمني ، وأتى للأمني
أن تردّ غائبا ، أو تعيد حبيبا صار تحت الثرى ! يقول الشريف (4) :

رثيتك كي أسلوك فازددت لوعةً
وأعلم أن ليس البكاء بنافعٍ
لأن المراثي لا تسدُّ المرازيا
عليك ولكني أمني الأمانيا

(3) نفسه ، ص 56-62 .
(4) نفسه ، ص 60 .

وكان ممّا رثاه نثرا ، رسالة كتب بها إلى أحد أصدقائه ، وفيها يقول :

" إنّه (الزّمن) كما لم يغيّر لي ودّه (الصابي) في حياته ، رماني بالخطب الجليل من وفاته ، وانتزعه من يديّ على حين انضمامهما على إخائه ، وتشبّثهما بعقد صفائه ، وحصوله أخوا في المودّة لصيقا ، ونسيبا في الفضل عريقا ، وإلى الله أشكو دهرًا حال دونه ، وقطع ما بيني وبينه ، وأفردني عنه أفراد الأمّ عن جنينها ، والشمال عن يمينها .

وبحسب مولاي ورئيسي ، أدام الله عزه ، أنّ فقدته أعرى ظهري على كثرة حُماتي وأنصاري ، وأوحدني على أقاربي وعشائري ، وجرّ عني من ثكله غصّة لا أزال أجد مرارتها في لهواتي ، وأحسّ بألمها ما بين أضلاعي أبدا ، ما أطيل لي في الأمد ، وروخي لي من الطّول ، حتى لقد ضاقت لذلك مفاصح قلبي ، وضعفت حوامل جسمي ، وحننت إلى قرب الوفاة ، وسئمت تكاليف الحياة . فتالله لقد بلغ منّي مبالغه الهَمّ ، واشتفى منّي بنومه الدهر ، وفجّعني به الخطب الهاجم بلا دليل ، والوارد بلا رسول ، وسقاه كأسا فضلتها مُعدّة لي بعده ، ويا ليتته صبّحني بها قبله " (1) .

لقد عدّ الشريف الرّضيّ موت صديقه الصابي ، انتصارا للزّمن على صداقتهما ، وجسّم رحيله بقوله : " وانتزعه من يديّ على حين انضمامهما على إخائه ، وتشبّثهما بعقد صفائه " ، وعبر عن عمق الصّداقة بينهما في صور مختلفة ، فشبه نفسه بالأمّ التكلّي " وأفردني عنه أفراد الأمّ عن جنينها " ، وأنزل صديقه منزلة العضو من الجسم " والشمال عن يمينها " ، وما أعجب حسرته على صديقه ، ووفاءه لحبيبه ، أن لم يعد لندياه بهجة ، فحنّ إلى اللحاق به " حننت إلى قرب الوفاة " ، لا بل تمنّى فداءه بنفسه " ويا ليتته صبّحني بها قبله " !

ولمّا عبّر عن عميق وفائه لصديقه ، قال :

" وإنّ ذهب النظراء والأقران ، واقتقاد الأتراب والأخدان ، غصّة ما لغليلها بلال ، ولا لغليلها بلال . فإلا يكن قريني سنّا ولده ، فإنّه قريبي صفاء ومودّة ، وإلا يكن موازني شرفا وحسبا ، فإنّه مساهمي فضلا وأدبا .

ولقد تركني بعده أزداد من النّاس بعدا ، وأمشي على الأرض وحشا ، ومع ذلك ، فما أخلو من تصوّره ، ولا أخلو ساعة من تذكّره ، إمّا بأن أرى فاضلا لا يساويه في مكانه ، ولا يجاربه في ميدانه ، فأذكر إبراره على أمثاله ، وتحليقه عن طبقاته ، وإمّا بأن أرى ناقصا ، فأعجب من إيثار الزمان لمثله ، وبيعه مثل ذلك العلق النفيس به " (2) .

(1) الصابي ، والرّضيّ ، رسائل الصابي والشريف الرّضيّ ، ص 105-106 .

(2) نفسه ، ص 107-108 .

ومضى يعدّ فضائله ، وجميل محاسنه ، إلى أن قال في آخر رسالته :
 " ولو أردت تعديد مناقبه كلها ، وإيراد مآثره بأسرها ، لأتعبت أناملتي ، وكددت خواطري ،
 وعجز الزمان عن إسعادي على استيفائها ، ومعونتي على إحصائها وتعدادها ، ولكّنه يكفي من
 جميع التأبين الذي أوردته ، والرثاء الطويل الذي ردّته ، أن أقول : أبو إسحاق إبراهيم بن
 هلال ، فلو كان اسم يوضع على جماع الفضل ، ويكون علما لمجموع النبل ، في زماننا هذا ،
 لكان هذا الاسم ، واستغني بذكره عن ذكر الثناء الجميل ، واختصرت به مسافة القول
 الطويل " (1) .

وعنما لامه بعض الناس ، لكونه شريفا يرثي صابئيا ، قال : " إنّما رثيت فضله " (2) ، أي
 أنّ اختلاف الديانة ، لم يكن سببا لنكران الفضل ! وكفى بهذا الوفاء شاهدا على التسامح الديني ،
 في حضارة الإسلام ، التي رفعت لواء : " لا إكراه في الدين " ؛ فسعد بفضلها الناس أجمعين .

خاتمة :

سعى هذا البحث إلى إبراز أحد مظاهر الحضارة الإسلامية المشرقة ، وهو : التسامح
 الديني ، كما يتجلى في حياة أبي إسحاق الصابي (ت 384هـ) ، أحد كبار الكتّاب والشعراء
 العباسيين ، الذين عاشوا في كنف الإسلام ، وتنعّموا بتسامحه وعدله ، ففاضت أقلامهم في
 التعبير عن معاني التسامح ، والمحبة ، والإخاء الإنساني .

وقد انتظم البحث في توطئة وثلاثة مباحث :

جاءت التوطئة في إثبات حقيقة أنّ التسامح الديني عنوان للحضارة الإسلامية ، بالدليل
 الواضح ، من القرآن الكريم والحديث الشريف الصحيح ، وأحداث التاريخ الإسلامي ، بمختلف
 مراحلها .

وجاء المبحث الأوّل في الحديث عن حياة الأديب أبي إسحاق الصابي في ظلّ الحضارة
 الإسلامية ، فأثبت أنّ هذا الرجل الصابي ، المتشدّد في ديانته ، عاش آمنا مطمئنا على عقيدته ،
 ممارسا لشعائر دينه الذي رضي ، وفي الوقت نفسه ، كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ،
 جزاء وفاقا ، لا سيّما الأكابر من أدباء عصره ، أمثال : الوزير المهلبيّ والصاحب بن عبّاد

(1) الصابي ، والرّضيّ ، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ ، ص 111 .
 (2) الفلقشنديّ ، أحمد بن عليّ (ت 821هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق محمّد شمس الدين ونبيّل الخطيب
 ويوسف طويل ، دار الفكر ، بيروت ، 1987م ، م 1 ، ص 71 .

والشريف الرضيّ ، حتى كوفئ برئاسة ديوان الرسائل ، اعترافا من المسلمين بعلمه وأدبه وفضله .

وجاء المبحث الثاني في بيان أثر الحضارة الإسلاميّة في أدب أبي إسحاق الصابي ، شعره ونثره ، فوجدناه يخوض في مسائل العقيدة الإسلاميّة ، موضحا لها ومفصّلا ، ويُسهب في بيان فضائل الإسلام ، وأخلاقياته الرفيعة ، ومحاسن رسوله الكريم ، صلى الله عليه وآله سلم ، حتى ليظنه القارئ مسلما مؤمنا ، لا يمتري بذلك ولا يشكّ !

أمّا المبحث الثالث ، فتحدّث عن تلك العلاقة الحميمة ، والمودّة العميقة ، التي نشأت بين الشريف الرضيّ وأبي إسحاق الصابي ، حتى بعد ممات الأخير ، فكانت صداقتهما ثمرة طيّبة للتسامح الدينيّ ، ومظهرا للإخاء الإنسانيّ ، يستحق الثناء ، ويستوجب الاقتداء .

وخلاصة القول : إنّ التسامح الدينيّ سبيل لا محيد عنه ، إذا أرادت الإنسانيّة العبور إلى التكامل الحضاريّ (1) ؛ لأنّ هذا التسامح عنوان للاعتراف بالآخر ، والاعتراف بفضائله ، وعنوان لتحضّر الإنسان ، يقاس بمدى احترامه لأخيه الإنسان ، وهكذا هو المسلم الحقيقيّ ، الفاهم لحقائق دينه وأخلاقياته السامية ، وهكذا هي حضارتنا الإسلاميّة الزاهرة ، حضارة العزة والتسامح والاعتدال !

(1) انظر : زهرة ، د. عطا محمّد ، تكامل الحضارات بين الإشكاليّات والإمكانيّات ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 161 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة ، قطر ، 1435 هـ ، ص 121-122 .

المصادر والمراجع والمواقع :

- القرآن الكريم .
- ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين (ت637هـ) ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ط2 ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1966م .
- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت249هـ) ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ط1 ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، 1983م .
- أبو حسان ، د. محمد ، دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تكوين الحضارة الغربيّة : دراسة مقارنة مع الحضارتين اليونانية والرومانيّة ، ط1 ، وزارة الثقافة ، عمّان ، 2009م .
- الحسنات ، حمزة ، أبو إسحاق الصابي : حياته وأدبه ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف د. ياسين عايش ، الجامعة الأردنيّة ، 2008م .
- الحموي ، ياقوت (ت626هـ) ، معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ط1 ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت ، 1993م .
- الخاقانيّ ، د. عليّ ، شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم ، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1962م .
- الخطيب ، د. شريف الشيخ صالح ، السنن الإلهيّة في الحياة الإنسانيّة وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك ، ط1 ، الدار العثمانيّة ، عمّان ، ومكتبة الرشد ، بيروت ، 2004م .
- أبو داود ، سليمان الأزديّ السجستانيّ (ت275هـ) ، سنن أبي داود ، ط1 ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي ، دار الرسالة العلميّة ، بيروت ، 2009م .
- رحائم ، د. سعاد ، الحضارة الإسلاميّة : جذور وامتدادات ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 121 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة ، قطر ، 1428هـ .
- زكيّ ، د. علاء الدين ، المظاهر الحضاريّة في الرسائل الفنيّة في القرن الرابع الهجريّ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، إشراف د. ياسين عايش ، الجامعة الأردنيّة ، 2012م .
- زهرة ، د. عطا محمد ، تكامل الحضارات بين الإشكاليّات والإمكانيّات ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 161 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة ، قطر ، 1435هـ .
- السعديّ ، د. قيس ، الشريف الرضيّ وأبو إسحاق الصابي : صداقة خلّدها التاريخ ، موقع على الشبكة العنكبوتيّة (الإنترنت) :
- الشعبيّ ، د. أحمد قائد ، وثيقة المدينة : المضمون والدلالة ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 110 ، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة ، قطر ، 1426هـ .
- الشكعة ، د. مصطفى ، الأدب في موكب الحضارة الإسلاميّة : كتاب النثر ، ط2 ، دار الكتاب اللبنانيّ ، بيروت ، 1974م .
- الصابي ، أبو إسحاق (ت384هـ) ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ، تحقيق شكيب أرسلان ، دار النهضة الحديثة ، بيروت .
- الصابي (ت384هـ) ، والرّضي (ت406هـ) ، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، 1961م .
- الصابي ، أبو الحسن بن المحسن (ت448هـ) ، الوزراء ، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار فرّاج ، دار الأفاق العربيّة ، القاهرة ، 2003م .
- صفّيّ الدين ، د. بلال ، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب : دراسة تطبيقيّة ، ضمن أوراق مؤتمر التسامح الدينيّ في الشريعة الإسلاميّة ، كليّة الشريعة ، جامعة دمشق ، 2009م .

- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ) ، تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ، ط1 ، تحقيق د. صلاح عبد الفتاح الخالدي وإبراهيم محمد العلي ، دار القلم ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، 1997م .
- العث ، د. يوسف ، روح الحضارة الإسلامية ، مجلة حضارة الإسلام ، العدد 10 ، دمشق ، 1961م .
- القرضاوي ، د. يوسف ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ط2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983م .
- القلقشندي ، أحمد بن علي (ت821هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق محمد شمس الدين ونبيل الخطيب ويوسف طويل ، دار الفكر ، بيروت ، 1987م .
- ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي (ت774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، ط1 ، تقديم عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار الفيحاء ، دمشق ، 1994م .
- متز ، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2008م .
- المحيبي ، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين (ت1111هـ) ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت710هـ) ، لسان العرب ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، 1997م .
- هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، وزارة الثقافة ، عمان ، 2013م .